الفصل الثالث

التحالف الصهيوني الاستعماري

بسبب فشله مع السلطان العثماني توجه هرتسل إلى الدول الاستعمارية الأوروبية الرئيسة حينئذ لطلب التأييد وتبني فكرة إقامة الوطن القومي اليهودي. لم تكن فرنسا وبريطانيا بعيدتان عن المشروع القومي بخاصة أن قادة سياسة وفكر من الدولتين سبق أن عبروا عن آرائهم بضرورة هجرة اليهود إلى الأرض المقدسة. توفر لدى البعض حماس للفكرة بسبب التراث المسيحي الأوروبي-اليهودي الذي يتنبأ بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، لكن الأهم من ذلك هو المصالح الاستعمارية التي كانت تسيطر على معظم الدول الأوروبية.

وجد هرتسل آذانا صاغية في الدول الاستعمارية لكن الوقت لم يكن مناسبا للمبادرة بشيء سواء على المستوى القانوني أو السياسي. ولكن نتيجة لذلك على الحركة الصهيونية أن تنتظر البيئة المناسبة لاتخاذ خطوات عملية من قبل هذه الدول والتي توفرت في المراحل الأخيرة للحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من عدم قدرة الحركة الصهيونية على انتزاع اعتراف علني بحق اليهود في الهجرة إلى فلسطين إلا أن الصهيونيين العمليين استمروا في الهجرة وإقامة المستوطنات. تبين الخريطة رقم (5) المستوطنات التي تم بناؤها مباشرة بعد قيام الحركة الصهيونية.

حصل تطور كبير في جهود الصهاينة عام 1917 عندما وجه وزير خارجية بريطاني آرثر بلفور رسالة إلى روتشيلد الفرنساوي باسم الحكومة البريطانية عبر فيها عن تعاطفه مع اليهود في بحثهم عن وطن قومي في فلسطين. وفيما يلي النص الحرفي لهذه الرسالة المؤرخة 2/تشرين ثاني، نوفمبر/1917 والمنشورة في الصحف البريطانية في 9/تشرين ثاني من العام نفسه:

عزيزي اللورد روتشيلد،

يسعدني كثيرا أن أنهي إليكم نيابة عن حكومة جلالة الملك التصريح التالي تعاطفا مع أماني اليهود الصهيونيين التي قدموها ووافق عليها مجلس الوزراء.

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل ما في وسعها لتسهيل تحقيق هذا الهدف. وليكن مفهوما بجلاء أنه لن يتم شيء من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين أو بالحقوق والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي دولة أخرى.

إني أكون مدينا لكم بالعرفان لو قمتم بإبلاغ هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني.

المخلص
آرثر بلفور

بعد صدور هذا التصريح بفترة وجيزة كانت الجيوش البريطانية بقيادة اللواء اللنبي تدخل فلسطين من جهة سـيناء وذلك بتاريخ 29/كانون أول، ديسمبر/ 1947، وعلى الفور باشرت بريطانيا بالتنفيذ.

ملاحظات على التصريح

أولا: التصريح ليس مجرد تعاطف كما قد يظن القارئ للوهلة الأولى. إنه تعاطف مصحوب بوعد للعمـل نحـو تحقيق الغاية. أي أن بريطانيا ستتخذ إجراءات عملية وستأخذ على عاتقها ولو جزئيا تسهيل مهمة اليهود.

ثانيا: يسري التصريح البريطاني على فلسطين التي لم تكن محددة. هناك أرض كنعان أو فلسطين التاريخيـة ذات البعد التاريخي وليس البعد السياسي المحدد والتي هي جزء لا يتجزأ من أرض الشام. لم يحدد التصريح عـن أي فلسطين يتحدث وتم ترك الأمور للمداولات السياسية فيما بعد.

ثالثا: تعامل التصريح مع اليهود على أنهم أصحاب الديار الفلسطينية وكأنهم يشكلون أغلبية سكانها، وتعامل مـع المواطنين على أنهم طوائف وكأنهم طارئين على البلاد. هذا منطق لا يستقيم مع الأبعـاد القانونيـة والسياسـية والأخلاقية والتاريخية، ولا يتماشى إلا مع شرعة غاب تتطلع إلى القوة كأساس في إقامة العلاقات مع الآخرين.
رابعا: لم يتعامل التصريح مع العرب مسلمين ومسيحيين على أنهم مواطنون وإنما وصفهم بالمقيمين في فلسـطين وكأنهم طارئين أتت بهم الصدفة.
خامسا: تجاهل التصريح الحقوق السياسية لمن وصفهم بالطوائف وحرص فقط على الحقوق المدنية مثل الحق في التعليم والحقوق الدينية مثل ممارسة الشعائر. أي أن التصريح لا يرى بأن هؤلاء الناس يستحقون كيانـا سياسـيا وإنما نوعا من مراعاة بعض شؤونهم اليومية.

أسباب تصريح بلفور

تعدد المصادر أسبابا عدة وراء إصدار بريطانيا للتصريح وتبني فكرة الوطن القومي اليهودي. من هذه الأسـباب ما هو شائع ويصعب الأخذ به ومنها ما هو غير شائع. أذكر أولا بعض الأسباب الشائعة مع التعليق عليها:

أولا: الشفقة على اليهود. تبادر أغلب المصادر إلى ذكر عنصر الشفقة كسبب أول للتعاطف مع اليهود فتقـول أن بريطانيا وعموم الدول الأوروبية كانت حزينة للأوضاع التي عاشها اليهود والمعاناة التي لاقوها بسبب الاضطهاد والملاحقات المستمرة، ولهذا أيدت إقامة الوطن القومي اليهودي علّ في ذلك ما يحل المشكلة اليهودية.

هذا سبب لا يقبله منطق ولا يتوافق مع أفعال الأوروبيين تجاه اليهود أو الفلسطينيين. إذا أراد شخص أو دولـة أن يشفق على أحد أو جماعة فإنه يفعل ذلك على حسابه الخاص وليس على حساب الآخرين. لا يستطيع المـرء أن يكون كريما على حساب الغير، أو أن يدعي العطف دون أن يملأ قلبه بالحب. وإذا أرادت بريطانيا أو ألمانيـا أو فرنسا أن تعطف على اليهود فإنه كان الأولى أن تعمل كل منها على حمايتهم من الأذى داخل حدودها وأن تمنحهم الحقوق الإنسانية التي يجب أن تتوفر لكل إنسان. وكان بإمكان كل منها أن تمنحهم قطعة أرض من أراضيها. وإذا توفر العطف فعلا فإنه لا يمكن حل مشكلة أناس على حساب شعب آخر. هل من الممكن أن يقبل العطوف تهجير شعب وطرده من ممتلكاته من أجل أن يحل مشكلة آخرين؟

هذا ومن الملاحظ تناقض الأوروبيين والأمريكيين عندما يعللون تعاطفهم مع اليهود بناء على ما فعله هتلر ضـد اليهود. والحق أن تصريح بلفور صدر قبل فترة طويلة من اعتلاء هتلر لسدة الحكم.

ثانيا: مكافأة وايزمان على اختراعه لنوع من المتفجرات أفاد الحلفاء في حربهم ضد المحور. صحيح أن الـدول تكافئ المخترعين والمبدعين، لكن هل تصل المكافأة إلى درجة منح وطن قومي أو دولة وعلى حساب شعب آخر؟ من المفهوم أن يعطى المخترع مبلغا من المال وبعض الهدايا الثمينة، أو أن يعطى راتبا معتبرا مـدى الحيـاة أو يمنح بيتا ريفيا جميلا، لكنه من الصعب استيعاب مكافأة تشبه الخيال.

إنما ليس من المستبعد أن وايزمان قد تحدث مع مضيفيه حول فكرة الوطن لقومي أثناء حفـل تكريمـه أو تقـديم الشكر له، ومن المحتمل أنه وجد إجابة لا ترتقي إلى وعد يكون بمثابة مكافأة.

ثالثا: استرضاء اليهود من أجل استقدام دعمهم المالي والإعلامي لمجهود الحرب. يرى البعض أن بريطانيا كانت بحاجة ماسة لدعم اليهود المالي ولجهودهم الإعلامية بخاصة في الولايات المتحدة عساها أن تنضم هذه الأخيـرة إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا. إن كان هذا صحيحا فإنه لا بد تم قبل تصريح بلفور لأن الحرب كانت على وشـك وضع أوزارها حين صدور التصريح. لكن من المحتمل أن وعدا غير معلن قد أعطي للصـهاينة قبـل صـدور التصريح خاصة أن بريطانيا كانت فعلا بحاجة إلى ترويج إعلامي في الولايات المتحدة للتأثير على الرأي العـام الذي من الممكن أن يدفع باتجاه الانضمام إلى الحلفاء. وعلى الرغم من أن انضمام أمريكا إلى جانب الحلفاء لـه مبررات أمريكية إلا أنه من الوارد أن الدعاية الصهيونية قد ساهمت ولو جزئيا في صناعة الرأي العام.

رابعا: المصالح الاستراتيجية لبريطانيا في قناة السويس والشرق عموما. كانت بريطانيا مسيطرة على قناة السويس من جهة الغرب بسبب استعمارها لمصر إبان الحكم العثماني، وبالتأكيد كانت تعمل على السيطرة على الجهة الشرقية من القناة وإبعادها عدوها الحليف فرنسا. فرنسا كانت من جهتها تطمح إلى التواجد شرقي القناة بسبب الأهمية الاستراتيجية لها من الناحيتين التجارية والعسكرية. فمن يسيطر على القناة يسيطر على حركة السفن التجارية والبوارج العسكرية شرقي البحر المتوسط وعبر البحر الأحمر. فمن المنطق التوازني مع بريطانيا ألا تسمح فرنسا بسهولة لوقوع القناة كليا بيد بريطانيا.

ولهذا كانت فلسطين مهمة لكلا الدولتين وخاضتا تنافسا فيما بينهما كانت الصهيونية إحدى أدواته. من المحتمل أن كلا منهما قد فكر بدعم الصهاينة على أمل أن يصبح الوطن القومي اليهودي مستعمرة أوروبية يشرف على شؤونها اليومية يهود يحرصون على التعاون في مختلف المجالات. ليس من المعتقد أن فرنسا قد وافقت على تصريح بلفور دون أن تكون قد وقعت في وهم أنها ستحقق شيئا يخدم مصالحها الاستراتيجية.

أما الأسباب غير الشائعة والتي أرى أنها ذات وزن كبير فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا: التراث المسيحي المرتبط بالعهد القديم. ينظر العالم المسيحي الغربي إلى التوراة على أنها العهد القديم وهي كتاب مقدس لا ينفصل عن الإنجيل. فما يحظى بقدسية في العهد القديم يحتل مكانة مقدسة لدى أصحاب الإنجيل. فلسطين في التوراة هي الأرض المقدسة التي سيعود إليها الشعب المقدس، وفي ذلك تحقيق للنبوءة وتصديق لصحة المعتقدات.

ثانيا: نظرة الغرب العدائية تجاه العرب وتنافسهم التاريخي معهم. كما هو واضح في كتب التاريخ، لم ينس الغرب معركة اليرموك وما يزال يصر أن تلك المعركة قد نقلت سوريا إلى عصر الظلام والتخلف تحت حكم المسلمين. أما معركة بلاط الشهداء فما زالت تحظى بتركيز كبير في الوعي التاريخي الغربي على اعتبار أنها أنقذت أوروبا من الوقوع فيما يصفونه ببراثن المتوحشين من العرب والمسلمين. ولم يكن غريبا أن نظم ملوك أوروبا حملات صليبية وعاثوا في البلاد الإسلامية الفساد وأعملوا القتل في الرقاب.

عبر اللواء الفرنسي جورو عن هذا البعد التاريخي عندما دخل سوريا وزار قبر صلاح الدين في حمص. ركل القبر برجله وقال: "قم يا صلاح الدين، ها قد عدنا." ولهذا لا بد أن يبقى العرب والمسلمون ضعفاء وأن يتم اتخاذ مختلف السياسات التي تضمن بقاءهم مفككين متصارعين وأدوات بيد الغير. إقامة الوطن القومي اليهودي عبارة عن إحدى أدوات الغرب للسيطرة على الشرق. الوطن القومي عبارة عن قاعدة عسكرية غربية متطورة وتستطيع أن تتدخل سريعا ضد أي جهة تحاول المساس بالمصالح الغربية.

حتى تكتمل حلقة الضعف، قام الغرب بتفتيت الوطن العربي وصنع إقطاعيات أو دويلات ونصب عليها قادة يوالونه ويفعلون ما يؤمرون. تفتتت الشام وكذلك الجزيرة العربية ووادي النيل، وتم استقدام عائلات وقبائل لتحكم العرب بطريقة لا تساهم في البناء الوحدوي وترسخ فكرة التفتيت والتبعية. منذ ذلك الحين حتى الآن وقادة العرب لا يستطيعون التمرد على إرادة الغرب والتالي على مصالح إسرائيل، ويلقى من يتمرد منهم صنوف التهديد والمقاطعة والحصار والحرب. وقد ظهر من مجريات الأمور في المنطقة أن أقوى بعد استراتيجي تملكه إسرائيل هو ضعف العرب والذي يسببه قادتهم.

أغرق الاستعمار العرب بخلافات داخلية استنفذ الكثير من طاقاتهم، وأعانهم الحكام في محاولاتهم المستمرة لصنع ثقافات محلية منفصلة عن الثقافة العربية عموما. صناعة الثقافات الخاصة بالدويلات القائمة يباعد بين الأجيال العربية مما يضعف الرغبة في الوحدة العربية أو الإسلامية. والمسألة هنا لا تتعلق بمدى نجاح الاستعمار وأعوانه من القادة وإنما بالسياسة العامة التي تم رسمها لضمان عدم وحدة العرب واستمرار منازعاتهم الداخلية واستنفاذ طاقاتهم إما في صراعات لا طائل تحتها أو في تبذير شهواني وفساد داخلي.

ثالثا: أراد الأوروبيون عموما التخلص من اليهود فصدروهم ومشكلتهم إلى الشرق. لم يعشق الأوروبيون اليهود يوما، وانشغلوا بهم وبالمشاكل التي كانت تتم معهم وضدهم فترة طويلة، وتعكر صفو استقرارهم الداخلي، ولم يكن من حل أفضل من إخراج اليهود من ديارهم وإرسالهم إلى ديار أخرى. لم يكن من السهل على الحكومات الأوروبية أن تبقى متوترة بسبب ما كان ينشب من منازعات وشجار وقتال وسفك دماء، ولم تستطع في ذات الوقت التخلص من عقدتها تجاه اليهود، وفي النهاية كان على العرب عموما والفلسطينيين خاصة أن يدفعوا الثمن.

رابعا: التحالف الصهيوني- الرأسمالي. وجدت القوى الرأسمالية الساعية إلى تحقيق الأرباح من خلال استغلال ثروات الشعوب الأخرى أن القوة العسكرية ركن أساسي في تحقيق أهدافها. يقود الاستغلال حتما إلى صحوة المستَغَل والتي قد تؤدي إلى الثورة أو تهديد مصالح المستغِلين، وهنا تبرز أهمية القوة العسكرية الرادعة أو المقاتلة لضمان استمرار تدفق الثروات. المنطقة العربية مليئة بالخيرات ومهمة جدا استراتيجيا سواء على المستوى العسكري أو التجاري، ولا مفر من الهيمنة عليها إذا أرادت القوى الرأسمالية العالمية ضمان مصالحها الاستغلالية.

وجود وطن قومي يخدم أهداف الحركة الصهيونية وأهداف القوى الرأسمالية في آن واحد من حيث أنه عبارة عن قوة عسكرية متطورة ومتقدمة وموجودة في المنطقة، ويمكن استخدامها في أي وقت وفي ظروف ميسرة ضد أي دولة أو جماعة تحاول أن تتحدى الإرادة الغربية. وهذا ما تأكد مع الزمن من حيث أن إسرائيل عبارة عن عصا غليظة مسلطة على رقاب العرب. لم يتوقف الغرب عن تسليحها بأحدث ما أنتجته ترسانتها العسكرية، ولم يخف عزمه المتواصل على المحافظة على قوة عسكرية إسرائيلية متطورة نوعيا ومتفوقة على القوة العسكرية العربية مجتمعة. حصلت الحركة الصهيونية قبل عام 1948 على الأسلحة من بريطانيا بصورة أساسية، وبعد عام 1948

هبت فرنسا لتسليحها وأمدتها بالمفاعل النووي الذي أنتج القنابل الذرية، وأتى دور أمريكا بعد عام 1967. لم تبخل الولايات المتحدة على إسرائيل وما زالت تزودها حتى الآن بما يلزمها من الأسلحة للإبقاء على تفوقها النوعي على العرب. أما الاتحاد السوفييتي المنهار فقد أحجم باستمرار عن تزويد العرب بأسلحة هجومية توازن الميزان العسكري في المنطقة، وعمل على تزويدهم فقط بأسلحة هجومية.

لكن الأكثر أهمية هو أن الغرب حرص على إقامة أنظمة عربية لا تحرص على الدفاع عن الأمة وتعتبر أمن النظام أهم بكثير من أمن الأمة. وكما أشرت سابقا، صنع الغرب أنظمة عربية تبعية كان دورها دائما متمما للدور الإسرائيلي إن لم يكن في الحقيقة تكامليا ضمن إطار تعاوني خفي. دول كثيرة واجهت الأخطار ففكرت بما عليها أن تفعل وصنعت السلاح، أما أنظمة العرب ففضلت بصورة عامة الاعتماد على الغير فتركت أنفسها في العراء معرضة للهزائم باستمرار. أما تلك الأنظمة التي حاولت أن تشذ عن القاعدة كان عليها أن تتعرض للعدوان الإسرائيلي وللعدوان الغربي الذي لم تبخل عليه أنظمة عربية بالتعاون والتشجيع. هكذا جرى مع العراق عندما بدأت تنمو قدراته التقنية والتسليحية، ومع ليبيا والسودان اللتين اتهمتا بتصنيع أسلحة كيماوية. والتهديد الغربي والإسرائيلي لإيران وسوريا مستمر، ومن المحتمل أن يترجم إلى عمل عسكري.

الانتداب البريطاني على فلسطين

بقيت بريطانيا حريصة على استمرار وجودها في بلاد الشام بخاصة فلسطين لتأمين هيمنتها العسكرية والتجارية في المنطقة برا وبحرا، لكنها كانت حريصة أيضا على عدم استفزاز حلفائها أو من مِن الممكن أن يكونوا معها. ولهذا رأت أن تناور مع الأطراف المعنية وهي فرنسا والحركة الصهيونية والعرب. كانت بالضرورة معنية بإخراج فرنسا من فلسطين حتى يتسنى لها استعمارها إما من خلال العرب أنفسهم أو من خلال اليهود. لقد فضلت اليهود على العرب وكما اتضح معنا في الجزء الخاص بالتحالف الاستعماري الصهيوني.

بالنسبة للتعامل مع فرنسا، تم الاتفاق بين الدولتين عام 1916 على تقسيم بلاد الشام بين الدولتين بحيث يكون الجزء الجنوبي من سوريا والعراق تحت الاستعمار البريطاني، وتكون سوريا الشمالية مع جزء من جنوب الأناضول من حصة فرنسا، ويبقى الجزء الجنوبي الغربي من سوريا وهو فلسطين مدولا. ارتضت فرنسا هذا التقسيم على اعتبار أنه حل وسط بين أطماع الدولتين الاستعماريتين. عرف هذا الاتفاق باتفاق سايكس-بيكو نسبة إلى المفاوضين البريطاني والفرنسي على التوالي. تبين الخريطة رقم (6) ما تم الاتفاق عليه. ويجد القارئ نص الاتفاقية ضمن الوثائق المرفقة في نهاية الكتاب.

في ذات الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مشغولة مع فرنسا لتقسيم بلاد الشام بدأت الاتصال مع العرب للانضمام إلى جانب الحلفاء في الحرب ضد تركيا وألمانيا. عرف هذا الاتصال برسائل الشريف حسين-مكماهون. الشريف حسين هو شريف مكة والذي كان زعيم العرب بسبب انتمائه إلى عائلة الأشراف الهاشميين وإقامته في مكة،

وبسبب تمثيله للعرب في الآستانة عاصمة الباب العالي العثماني. كان يتمتع الشريف بمكانة عالية لـدى العـرب وكان بمثابة القائد المقبول من قبل أغلب المثقفين وقادة الرأي والعائلات المتنفذة. أما مكماهون فكان سفير بريطانيا في مصر.

دارت الرسائل حول دخول العرب الحرب لقاء إقامة مملكة عربية في الجزء الآسيوي من البلاد العربية، أي شبه الجزيرة العربية والشام. تقول المصادر العربية أن الإنكليز أعطوا الشريف وعدا قاطعا بإقامة هكذا مملكة مما دفع الشريف بعد استشارة الحركة القومية في سوريا إلى إعلان الحرب ضد تركيا. مـن خـلال قراءتـي للرسـائل البريطانية لم أجد أن هذا الاستنتاج العربي صحيح. وعد الإنكليز بإقامة مملكة لكنهم لم يحددوها وأبقوها مشروطة بعدد من القضايا مثل المصالح البريطانية في عدد من المناطق مثل بغداد والبصرة، ومصالح الدولة الحليفة فرنسا والتزام بريطانيا بما وعدت به آخرون وعدم عروبة بعض المناطق مثل حلب وحمـاة وحمـص. لقـد طرحـت بريطانيا فكرة الدولة بثوب حريري يغطي كومة من الأشواك والعراقيل.

على أية حال، لم يختلف تصرف الشريف حسين عن تصرف أغلب الزعماء العرب الحاليين وعمل على تفسـير الرسائل كما حلا له ولمستمعيه وأعلن الحرب. لكن هل كان بمقدوره فعلا أن يقيم حربا؟ طبعا لا. كـان العـرب ضعفاء جدا ولم تكن الآلية العسكرية الحديثة قد وصلتهم إلا من عدد من البنادق التي زودهم بها لورنس العـرب. لورنس هذا رجل إنكليزي عاش مع العرب حياة البداوة واكتسب لغتهم واللهجة البدوية وأتقن عاداتهم وهو الذي

قادهم عبر الجزيرة العربية ليدخلوا الشام. اتجه الجيش العربي الذي استخدم الجمال والخيول وتسـلح بالسـيوف وبعض البنادق شمالا بقيادة الأمير فيصل الابن الأكبر للشريف وبصحبة أخيه الأمير عبد الله.

كانت بريطانيا على وعي تام بالقدرات العسكرية الهزيلة للعرب وبعدم استطاعتهم ترجيح كفة الحرب لصـالح أي طرف، لكنها لم تكن مهتمة حقيقة بالقدرة العسكرية وإنما بالمنفذ القانوني أو السياسي الذي تدخل من خلاله الـبلاد العربية. فبدل أن تدخل البلاد غازية تدخلها كحليف يعمل على طرد الأعداء ويكون بيدها حجة ضد كل من يصفها بالاستعمارية ووجوب التصدي لقواتها. أي أن بريطانيا استعملت الرسائل لتبرير سياستها وليس لتحقيق مصـلحة عربية. وقد اتضحت السذاجة العربية من خلال الفهم المغلوط لمحتوى الرسائل ومن خلال رد الفعل العربي على اتفاقية سايكس-بيكو وتصريح بلفور. راجع الشريف حسين الإنكليز عقب معرفته بهذين التطورين واكتفى بطمأنة الإنكليز له بأن كل شيء سيكون على ما يرام بعد أن تضع الحرب أوزارها. لم يكتشف الشـريف هـذا الوعـد الغامض إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بالفعل إذ اتهمه الإنكليز بالقصور العقلي وأبعدوه عن الساحة العربية إلى أن توفي فأذنوا بدفنه في إحدى الغرف الجانبية لساحة المسجد الأقصى.

هناك من يتهم الشريف حسين بالخيانة لأنه وقف ضد تركيا وهي الدولة المسلمة لصالح الدول الاستعمارية. أظـن أن هذا اتهام ثقيل وبحاجة إلى أدلة وبراهين. المشكلة حقيقة لم تكن عند الشريف حسين أو العرب عمومـا وإنمـا عند الأتراك أنفسهم الذين كانوا يصرون على التتريك وعلى رفض التعامل مع العرب على قدم المسـاواة ضـمن دولة إسلامية. حرص العرب ومنهم الشريف حسين على بقاء الدولة الإسلامية التي تجمع قوميات مختلفـة علـى أسس الاحترام المتبادل، إلا أن الأتراك رفضوا وأتبعوا رفضهم بإعدام القوميين العرب في بيروت ودمشق. علـى أية حال، السذاجة والخيانة يقودان غالبا إلى ذات النتيجة.

استفرد الاستعمار بابني الشريف حسين فيصل وعبد الله من أجل توظيفهما لخدمة مصالحه. كان عبد الله المحطـة الأولى حيث بقي في شرقي الأردن وأقيمت له إمارة بتمويل إنكليزي. لم يكن من الصعب على الأمير أن يحظـى بقبول القبائل شرقي الأردن بسبب نسبه وحسبه. عمل الأمير بالتعاون مع الإنكليز على تأسيس وحدة سياسية تتميز وتنفصل عن الديار السورية، وعمل أيضا على إقامة علاقات طيبة مع بعض قادة الحركة الصهيونية في فلسطين. ومنذئذ حتى الآن بقيت العلاقات ودية بين اليهود في فلسطين والعائلة الهاشمية الحاكمة في الأردن.

أما الأمير فيصل فقد أقام علاقات وثيقة مع قادة الحركة القومية في سوريا واستقطب حوله عددا مـن المفكـرين والمثقفين. لكنه وقع في خطأ كبير تراجع عنه فيما بعد وهو عقد اتفاق في آذار/ مارس مـن 1919 مـع حـاييم وايزمان ممثل الحركة الصهيونية يعترف فيه بتصريح بلفور وبحق اليهود في الهجرة إلى فلسطين. (يجد القـارئ نص الاتفاق في ملاحق هذا الكتاب) وعلى الرغم من ذلك تمسك به قادة سوريا من أجل تنصيبه ملكـا يمكـن أن يلاقي قبولا من قبل الجماهير. وبالفعل عقد المؤتمر السوري العام في 2/ تموز، يوليو 1919 في دمشق واتُخـذ قرار بإقامة المملكة السورية، وكذلك رفض تصريح بلفور وفكرة إقامة الوطن القومي في فلسطين. عاد فيصـل من فرنسا إلى ميناء حيفا حيث استقبلته الجماهير بحفاوة، ومنها إلى دمشق عاصمة المملكة حيث نودي به ملكـا. تم الإعلان عن قيام المملكة السورية في 8 آذار/ مارس 1920. لكن الإنكليز تآمروا مع الفرنسـاويين وفتحـوا

المجال أمام القوات الفرنسة لمهاجمة الدولة العربية الفتية وقضوا عليها على إثر معركة ميسلون في آب/ أغسطس 1920 والتي استشهد فيها قائد الجيش العربي يوسف العظمة. ومن ثم طُرد فيصل إلى العراق حيث أقامـت لـه بريطانيا مملكة تدين لها بالتبعية.

واضح أن الإنكليز نجحوا في خداع العرب، ونجحوا في إبعاد فرنسا عن قناة السـويس علـى الـرغم مـن أن الفرنسيين كانوا يخططون لسرقة المستعمرة الصهيونية المحتمل قيامها من بريطانيا. لكل طـرف عـدا العـرب حسابات، ولم يكن من السهل على بريطانيا ضمان التطلعات الصهيونية وطموحاتهـا. علـى عكـس التخطـيط البريطاني، كانت الصهيونية تراقب التنافس الاستعماري الذي يمكن أن يخدمها في تحقيق استقلال يهودي يتعامـل على قدم المساواة مع الدول العظمى. فما كانت تظن بريطانيا أنه سيكون مستعمرة لها انقلب ضـدها فـي نهايـة الأمر ليشن ضدها وكما سنرى فيما بعد ما أسماه بحرب الاستقلال.

سعت بريطانيا منذ اللحظة الأولى لدخول قواتها بلاد الشام إلى تنفيذ وعدها لليهود على حساب العرب. ولضـمان ذلك عملت على عدة جبهات مع عدد من الجهات: مع فرنسا من أجل ضمان انتداب بريطاني على فلسطين، ومع دول الحلفاء من أجل إقامة منظمة دولية تشكل غطاء قانونيا لما يمكن أن تقوم به من أعمال على المستوى الدولي، ومع الصهاينة بهدف الإسراع بالهجرة اليهودية إلى فلسطين.

مؤتمر الصلح

عقد مؤتمر الصلح بين المتحاربين في الفاتح من عام 1919 بهدف تسوية الأمور وفق النتائج العسكرية للحـرب. حضر المؤتمر الذي سيطر عليه الحلفاء (بريطانيا والولايات المتحدة وإيطاليا وفرنسا) الأمير فيصل بن الحسـين ممثلا للعرب. أكد فيصل على تطلعات العرب في الاستقلال والوحدة وطالب الحلفاء باحترامهـا. أكـد الحلفـاء بعبارات عامة رغبتهم في مساعدة الأقاليم التي كانت تحت حكم العثمانيين على الاستقلال والأخذ بيدها نحو البناء، ورأوا أن يتم تقصي الأوضاع في سوريا للوقوف على حقيقة الوضع. وقد كان من الواضـح أن فكـرة الـوطن القومي اليهودي تقف وراء تخصيص سوريا باستقصاءات ولجان خاصة.

كان من المفروض أن تشكل كل دولة لجنة خاصة مستقلة عن لجان الدول الأخرى للبحث في الموضوع السوري، إلا أن الولايات المتحدة هي الوحيدة التي فعلت ذلك. شكلت لجنة عرفت بلجنة كنغ-كراين نسبة لاسـمي عـائلتي المسؤولين عنها. وقد دونت اللجنة في تقريرها ضرورة احترام حقوق الشعب السوري ورغباتـه، وأبـدت عـدم ارتياحها لفكرة إنشاء الوطن القومي اليهودي. واتضح مع الأيام أن رغبة أمريكا في احترام تقرير لجنتهـا غيـر واردة.

تمت الموافقة في مؤتمر الصلح على ميثاق عصبة الأمم لتشكل الغطاء القانوني للإجراءات الاستعمارية الغربيـة. لم توقع الولايات المتحدة الميثاق لكنها لم تقف ضده. نص الميثاق فيما نص عليه على أن الأقاليم التي تم تحريرها من الدول المهزومة عبارة عن أمانة بأيدي الدول المنتصرة والتي من المفروض أن تأخذ بيدها للانطـلاق نحـو التقدم. وقد عهد الميثاق إلى هذه الدول مهمة تدريب شعوب هذه الأقاليم لتصبح قادرة على الوقوف على أقـدامها. وقد استعمل الميثاق تعبير الدولة المنتدبة لوصف راعية الشؤون. وتمت ملاحظة أن الشعوب تختلف في مسـتوى تطورها مما يستدعي مراعاة نمط الانتداب ومدته، وكذلك مطالبة الدولة المنتدبة تقديم تقرير سنوي للعصبة حـول نشاطاتها في الإقليم بهدف الوقوف على مدى التقدم الذي حققته في صعود الشعب نحو الاستقلال.

مؤتمر سانت ريمو

لم توافق كل من بريطانيا وفرنسا على مقررات المؤتمر السوري الأول ولم ترق لهما فكرة المملكـة السـورية. ولهذا انهمكتا مع الحركة الصهيونية في ترتيب أوضاع سوريا بالطريقة التي تتلاءم مع مصالحهم. عقـدت النيـة على تجزئة سوريا واقتسامها، وتم تداول حول رسم حدود الإقطاعيات المنوي صنعها. صيغت أنماط حدودية عدة بسبب خلافات حول كيفية ترتيب الوسط السوري، وانتهت المداولات إلى رسم الخريطة رقم (7) المرفقة والتـي جعلت من سوريا أربع إقطاعيات صغيرة.

لم تكن الحركة الصهيونية راضية عن التقسيم وطالبت بتوسيع الجزء الفلسطيني حسب الخريطة رقم (8) ليكـون الوطن القومي لليهود. لم توافق فرنسا وبريطانيا على المطالب الصهيونية والتي تم اعتبارهـا فـي حينـه أرض إسرائيل الشبيهة بمملكة داود التوراتية. على أية حال، ما يزال عدد من اليهود ومن الأحزاب الدينيـة والقوميـة المتدينة يرون أن الحلفاء لم يفوا تماما بوعودهم وأعطوا أغلب ما يسمونه بأرض إسرائيل للعرب.

من أجل وضع المداولات في إطار قانوني، عقد المجلس الأعلى للحلفاء في سانت ريمو في نيسان/ إبريل من عام 1920 وقرر وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ووضع عبر الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني، بينما وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني على أن تنفذ تصريح بلفور.

صك الانتداب

صدر صك الانتداب على فلسطين في 24/تموز، يوليو/ 1922 عن عصبة الأمم المتحدة. أنيطت مهمة الانتداب إلى بريطانيا وفق قرار دول الحلفاء بتعيين الحدود وحقهم في اختيار الدولة المنتدبة، وشريطة تنفيذ تصريح بلفور

الخاص بإقامة الوطن القومي اليهودي. وأنيط ببريطانيا مهمة التشريع والإدارة والمحافظة على الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها من أسماها بالطوائف غير اليهودية في فلسطين. وطالب صك الانتداب بإنشاء وكالة يهودية تتولى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية لليهود بالتعاون مع الدولة المنتدبة. أي أن الوكالة عبارة عن هيئة يهودية تتولى تدريجيا الإشراف على الشؤون اليهودية بهدف الوصول إلى الوطن القومي اليهودي. ونص الصك على ضرورة تسهيل انتقال الأراضي لليهود بخاصة الأميرية منها، وتسهيل الهجرة اليهودية واكتساب الجنسية الفلسطينية. واعترف الصك باللغة العبرية كلغة رسمية في فلسطين إلى جانب اللغتين العربية والإنكليزية.

ولتوضيح وضع شرقي الأردن التي كانت تعتبر جزءا من جنوب سوريا فقد تم تخصيصها بصك انتدابي منفصل للتوضيح بأنها غير مشمولة بفكرة الوطن القومي اليهودي. أقرت العصبة الانتداب على شرقي الأردن في أيلول، سبتمبر/ 1922 وأن تكون بريطانيا هي الدولة المنتدبة.

صك الانتداب هذا هو جزء من الشرعية الدولية التي تتمسك بها الدول الغربية، وهو يمثل حق القوة. ببساطة، كانت دول الحلفاء مهيمنة مما أعطاها الحق في تقرير مصائر الشعوب وأوطانها، وما زالت الدول الغربية بخاصة الولايات المتحدة ذات يد قوية وتستطيع أن تفرض السياسة التي تراها مناسبة. أين العدل في ذلك؟ المسألة هنا لا تتعلق بالعدل وإنما بالقوة خاصة أن العلاقات الدولية أو السياسة الدولية لا تقوم على أسس العدل أو الإنصاف. لا يستطيع الضعيف أن ينتزع حقه أو يحافظ عليه، وإن أصر على العدل فإنه لا بد أن يبحث عن أسباب القوة لترسيخه وانتزاع حقوقه. البكاء والعويل لا يجديان نفعا، ولا اتهام الغير بالظلم يعيد حقا، وفقط هي السواعد القادرة على البناء والتحصين القادرة على ذلك. نأمل أن يتغير العالم ويصبح محكوما بأسس العدل، وحتى يتم ذلك لا مفر من البحث عن وسائل أخرى للمحافظة على الحقوق أو استرجاعها.